الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

(٢)

﴿ الثورة والديموقراطية الصحيحة ﴾ دلّ التتبع على ان الدول التي رسخت قدمها في الطريقة النيابية فاصبحت ديموقراطية حقاً كالدولة البريطانية لا تجد الثورات فيها مرتعاً خصيباً، وذلك لا لانها مبرأة من كل عيب بعيدة عن مواقع الزلل ولا يشعر ابناؤها بشيء من الغبن الفاحش وخيبة الامل بل لان طريقتهم النيابية الراسخة تمكنهم كما قلنا في الفصول السابقة من الخلاص من هذه الحكومة بطرق الانتخاب القانونية ومن غير التجاء الى العنف والشدة ، ولعل ذلك اعظم ميزة تتحلى بها الطريقة الديموقراطية الصحيحة الموفقة ومعظم ما قيل من قبل عن غير ذلك من الميزات دلت الوقائع على انهُ فاسد غالباً

واما تلك الدول التي لم ترسخ لها قدم في الاصول النيابية كمعظم جمهوريات اميركا المتوسطة واميركا الجنوبية فالدستور فيها يكون بيد الحكومة المتسلطة ألعوبة تفسره وتنسخه وتمسخه كما يتراءى لها من غير خوف ولا وجل لان الشعب الذي يجب ان يقوم هذا الدستور على قوته المادية والمعنوية هو شعب لم يختمر له رأي عام ولم تنتظم له ارادة حازمة

ولا يعني هذا الكلام ابداً ان الشعب متى استاء من الحكومة ثار في وجهها وقلبها دائماً بل ان للحكومة من الاجهزة ولاسيما في ايامنا هذه ما يمكنها من منع بوادر الثورة او من قمعها متى وقعت، ولكن قمع الثورة شيء وقمع الافكار شيء آخر — تستطيع الحكومة بقوة الحديد والنار ان تمنع هيئة وطنية اخرى ان تحل محلها ومهما تنوعت هذه الهيئة بزرع الآمال الوهاجة والاحلام الذهبية البراقة ولكنها لن تستطيع ان تصادم سيل الافكار المستجدة ولاسيما متى كانت مبنية على العلم الصحيح والتجربة المضبوطة ومتفقة مع المصلحة والعاطفة ، فمثل هذا السيل جارف لا تقف في وجهه السدود بالغة ما بلغت من المتانة والاحكام

وذكر الاستاذ (كونارد جل) ان الفلاحين والعمال المحجوزين في قفص من جهل وفقر لا يثورون في وجه اسيادهم ما لم يكونوا قد تعلموا ان في طاقتهم الوصول الى غرضهم بالثورة ، فما يستوقف الانظار ان الفلاحين الفرنسيين الذين ثاروا في سنة ١٧٨٩ كانوا اخف حالا من غيرهم من الفلاحين في بعض البلدان الاوربية الاخرى وهؤلاء لم يتوصلوا بشيء لتحرير انفسهم ، لكن الفرنسيين كانوا

قد فقهوا شيئاً من الديمقراطية مجهولاً عند غيرهم فحفزهم الى العمل ، ولا تقوم ثورة من الثورات ما لم يختمر في عقول الناس حلم او امل بتحسن في الحياة — او على اقل تقدير بما يحسب تحسناً فيها — مما بعد هذه العقول للانقلاب المنشود والامل لا الخوف هو الذي يحدث الثورات المتكللة بالنجاح (١)

﴿ التنظيم ﴾ الاستياء والامل والغاية التي يضعها الزعيم نصب العيون هي عوامل ثلاثة جوهرية في حدوث الثورات ولكنها لا تحقق الغرض وتأتي بالانقلاب المنشود الا متى دخلت فيها يد التنظيم ، فلتحقيق الثورة لا بد من يد قوية مارست امزجة الناس وعرفت كيف تستولي على لبهم وتدير دفة السفينة التي يركبونها . وجميع الانقلابات الخطيرة التي قامت في العالم انما قامت بالتنظيم على كفة الزعامة القوية . وغني عن البيان ان القوة التي نشير اليها هنا ليست قوة الابدان اذ ليس من الضروري ان يكون الزعيم مصارعاً ، ولا شدة الصياح وانتفاخ الاوداج فالصوقة من أهل الشوارع يمارسونها ويجيدونها خيراً منهُ ، وانما نريد العقلية الروحية التي ترفع المتحلي بها على هام الرجال . وعلى قدر هذه القوة في الزعامة يكون النجاح في المقاومة

ثم ان الحكومة التي يترتب على الثورة ان تزحزحها عن العرش تتمتع بقوة الجيش في البر والاسطول في البحر واسراب الطائرات في الجو وسائر ما استحدث من آلات الهلاك والدمار على عيار واسع ، وفي قبضة يدها المحاكم والسجون والمرافق الاقتصادية وما يضاف الى ذلك من حثالات نفعيين مأجورين واذناب لا هم لهم الا ان يسبحوا بحمدها آناء الليل واطراف النهار ولو خرب الوطن والسا كنوه ونضبت منابع الحياة فيه ؛ فلا بدَّ للزعامة والحالة هذه من جمع شتات القوى الناشئة عن الاستياء وتنظيمها بحيث يكون في مقدورها ملاقاة هذا العدد المديد المتحصن وزحزحته عن مكانه

هذه هي العوامل بالاجمال من ناحية زعماء الثورة والقائلين بقولهم فالى أي حدٍّ تستطيع الحكومة يا ترى أن تقاومها ؟ وليس الجواب عن ذلك متعذراً اذ قد جرت في الشرق الاوسط ثورات متنوعة تزود الباحث بالاجوبة المقنعة ، فحيثما كان الشعب حيًّا نشيطاً شاعراً بظلاماته مدركاً الغرض الذي ينشده عارفاً رجاله بعيداً عن التوسخ بالاراذل المنحطين ومنظماً تنظيماً يوحد جهوده ويجعل الضربة التي يكيلها تنزل على الرأس المقصود في الساعة المعينة ولا يفسح مجالاً للدجالين الصفقاء ان يندسّوا بين أفراده وكانت الحكومة جباناً ضعيفة لا سلطة لها على الجيش والاسطول وسائر منابع القوة وكانت يابسة لا تلين للمقتضيات الزمنية الملجئة التي استجدت فالنتيجة الانقلاب السياسي حما . بل قد لا تكون الامة على الشيء الكثير من تلك الشمائل ولكن خصمها الجالس على منصة الحكم فيها يكون ضعيفاً جباناً غير مزود بغير الملاحظات التي تزيد وساوسه فتقع الواقعة ويتم الانقلاب بين عشية وضحاها كما حدث في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فان ثورة محلية دبرها افراد من الجيش في

(١) Conard Gill, P. 265

الروملي وكبر من شأنها بعض صغار الموظفين في البرق والبريد فجازت على السلطان عبد الحميد وقواده وانتهت بانقلاب سياسي غاية في الابداع، وزحزحت كابوساً من كوابيس الاستبداد ترزح على صدر الامة عشرات السنين فكاد يقطع الانفاس ، وثلت عرشاً من العروش تحكم في رقاب العباد فعلّم الناس الذلّ وعوّدهم الصغار

***

وفي درس الثورة العربية الكبرى والبحث عن اسباب هبوبها وخمودها والنتائج التي تولدت عنها ما ينطبق على هذه الملاحظات التي قدمناها ، فقد ألمعنا الى الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ وكان من أهم عواقبه ان اتجه الرأي العام بين فتيان الترك الى تتريك سائر العناصر في الدولة العثمانية خشية ان تتغلب هذه العناصر في آخر الامر على الترك أنفسهم . ولحظ رجال العرب في الاستانة منذ تلك الايام الاولى المبادىء التي يسير عليها مصطفى كمال باشا اليوم من اضطهاد العربية وقطع الصلة بثقافتها وهذا أدّى بطبيعة الحال الى ايقاظ القومية العربية من سباتها العميق وانتباه العرب الى حوزتهم المادية والمعنوية ، فعدّ الترك هذا العمل خروجاً على الدولة وانشقاقاً عنهم حتى اذا اعلنت الحرب العالمية انتهزوها فرصة فأرسلوا الى سورية وهي دماغ النهضة العربية المفكر طاغيتهم احمد جمال باشا وزبانيته ومن انضم اليهم من المأجورين فأتوا في البلدان العربية من الاعمال ما يعيد الى الخاطر ذكريات جنكيز خان وهولاكو خان وتيمورلنك فنصبت المشانق وسيق اليها رجالات العرب الافذاذ باحكام مزورة مصطنعة حتى ان احد الاعلام المرحوم عبد الوهاب بك المليحي كان الحكم الذي صدر عليه بالموت انهُ لا يحب الدولة — يعني يحكم على الناس بالموت والحياة بمجرد الحب والبغض على طريقة ديوان التفتيش في القرون الوسطى !

فأثارت هذه المظالم والمغارم ما بثهُ الزعماء من دعاية استنكاراً عامًّا لان الدم الزكي أهراق كالشاشة الحمراء بيد المستفزين اللاعبين في المنطح بهيج الثيران ويدفعها الى الغضب . أضف الى هذه الجنايات السياسية اعمال الموظفين ولا سيما رجال العسكرية منهم وما كانوا يحدثونهُ في الرعية من المنكرات باسم اعانة الجيش ولو بجمع زجاجات (الكولونيا) وغيرها من العطور . ولم تعدم مثل هذه القرص السياسية دولة تنتهزها فتكشف عن ساقيها البضتين الناعمتين وتلوّح للعرب بذيلها الحريري الفتان فتفتح في خيالهم أبواب جنة طالما حلموا بها وظنوا فيها السعادة الملشودة ، وقد طاب على العرب بعض المتنطعين قبولهم المعونة التي عرضتها عليهم الدولة البريطانية وفاتهم ان ظلم السفاحين من الاتحاديين بلغ بالناس درجة ان لو نادتهم دولة (هايتي) او قبائل (نيام نيام) للبوها وهرولوا اليها فما بالك والملوّح اعظم دولة على وجه الارض — هي انكلترة ملكة البحار وقارون المال

اما عيوب الثورة العربية الكبرى فهي كبيرة على نبلها . فمنها ان الزعامة على ما تحلّت بهِ من وطنية صادقة وعزيمة ثابتة كانت عتيقة بالية في تصوراتها ووسائلها « حميدية » في نزعتها طافحة بالكبرياء

على غير اساس تكاد تكون فكرتها ابتدائية ، ومنها ان الرأي العام كان لا يزال في كثير من الاقطار تحت كابوس الفلسفة التي اناخت بكلكلها على عقول القرون الوسطى . فكان الناس يتأثرون بكلمة خلافة واسلامة اكثر مما يتأثرون بكلمة وطن وشعب ، ومنها نقص التربية السياسية . . ومنها . . ومنها . ولكن على التحقيق اعظمها فقد التنظيم بين ابنائها فكانت مقاومتهم للمستعمرين اشبه شيء بالاعمال الانعكاسية الفطرية ليس للرأي فيها كبير شأن ، ولم تتجاوز في صيارها الهبّات الموضعية المتقطعة فكانت اذا اشتعلت في جهة بفعل المهيجين لا يمدم الاتحاديون من يساعدهم على اخمادها من ابناء البلاد انفسهم في جهة اخرى ، وقد بقيت بعض الاقطار العربية متعلقة بأهدابهم واعداب خلافتهم الى النفس الاخير وذلك لا فنوطاً من عقلية الملك حسين واستيحاشاً من فوضى البدو وخوفاً من طمعهم الاشعبي الذي لا حدّ له ، او تعمقاً في فهم الخطط الاستعمارية التي تتهددهم من الغرب واحاطة بدسائس الافرنج بل خضوعاً لنظريات عتيقة انقبرت مع القرون الوسطى وزالت بزوال السلطة الاكليريكية السياسية

ومما اذكر هنا من غرائبها ان نحو ثلاثة آلاف اسير من ابناء العراق الافحاح كانوا اسرى في (ممربور) من بلاد غند فبث بعض الضباط العرب بينهم فكرة القومية العربية والجهاد في سبيل الاوطان لانقاذ اخوانهم من مظالم جمال باشا في سورية وخليل باشا في العراق فتقبلوا الانضمام الى الثورة وفيما هم في الطريق انبث بينهم بعض الافراد المتركين ففتنوهم عن قوميتهم وفتنوهم عن وطنهم فلما وصلوا الى (جدة) ونزلوا الى البر يتأهبون للذهاب الى ميادين الجهاد نكصوا على اعقابهم فجأة وصاحوا بأعلى اصواتهم يحيون السلطان في القسطنطينية بقولهم « بادشاهم چوق ياشا » فليت (كمال اتاتورك) مطلق العربية والاسلامية والشرقية يصغي الى صياح العرب هذا فيفرق بالبقية الباقية من ابناء الخلفاء العثمانيين واحفادهم ويدفع عنهم وصمة التشرد وذل الحاجة

وهذه الثورة السورية التي اندلع لهيبها في سنة ١٩٢٥ قد اتت من اعمال البطولة ما يسجل لسورية بمداد الفخر لكن البطولة شيء والتنظيم شيء آخر ، فقد الجأتنا سيرة الكابتن (كاربيه) في جبل الدروز وخفة الجنرال (سراي) في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة من السخط الناشيء عنهما فباشرنا العمل وخضنا غمار الثورة قبل ان يتم تأليف (حزب الشعب) ويتم لنا بتأليفه تنظيم البلاد من اولها الى آخرها حتى اذا اقتضت الحال ان نضرب ضربتنا شددنا المطرقة واوجيناها على التوالي بالاوامر المنظمة لتقع الضربة على الرأس المقصود ، فكان اسراعنا الاضطراري هذا سبباً لحرمان الوطن من اقتطاف ثمار جهوده بما يتكافأ مع البذل الغالي الذي بذله بالمال وبالرجال ، ذلك لان سورية ويا للاسف لم تتركلها بل الذي ثار جزء صغير منها وفي اوقات متقطعة

***

﴿ الثورة وقابلية الشعوب لها ﴾ وتقسم الاقوام بالنسبة الى الثورة كما قال الاستاذ (كونارد جل)

الى درجات ، فالدرجة الاولى وهي احطها قوم يأكلون الصفع على وجوههم وتثن عليهم الفقرات في عقر دورهم ويساقون الى الذل والصغار من مخاطمهم فلا تبدر منهم بادرة بالتذمر بل تجدهم فرحين بالنير على اعناقهم فرح السيد الحر بالانطلاق حتى ان الذي يستعبدهم لا يرى حاجة الى استرضائهم بأكثر من الوظائف الحقيرة يمن بها على رجالهم وكسر الخبز يلقيها لابنائهم وابتسامات الغدر يظهرها لنسائهم ، وهؤلاء كما قال الاستاذ قد يئسوا من الانحطاط انهم لن يثوروا

و (الدرجة الثانية) قوم حازوا المقدار الكافي من الامل والنشاط للاقدام على الثورة وعرفوا ان لهم حوزة مادية ومعنوية لا قيام لهم الا بالدفاع عنها والتعلق بأهدابها فثاروا لكنهم غلبوا على امرهم وقهروا في الميدان فما عليهم الا ان ينتظروا سموح فرصة اخرى ملائمة وهذه الفرصة قادمة حتماً اذا هم تذرعوا بالصبر واحتفظوا بقواهم للحيوية

و (الدرجة الثالثة) قوم عرفوا كيف تؤكل الكتف فنظموا ثورتهم واختاروا خير الاوقات لاعلانها فنجحوا في تنفيذها وفازوا بتحقيق غاياتها وتمكن الشعب من بعدها ان يسير في الحياة على السبل التي تسير عليها الامم الحية المستقلة

وثمة درجة رابعة هي في نظر الاستاذ ارقى الدرجات واكملها وهي قائمة على التدرج في الانقلاب والتحول بالطريقة السلمية المجردة من العنف والشدة . وفي وسع الباحث ان يتصور ان مثل هذه الدرجة هي في حيز الامكان في الشعوب المستقلة ذات التربية السياسية السمحة في داخليتها الآمنة على حوزتها من التعدي الخارجي الذي يهددها في اقدس مقومات حياتها . واما المستعمرات والمحميات والمتفكات على الطريقة التي رأيناها او سمعنا بها فانتظار خلاصها بالطريقة الشورية التدرجية الهادئة معناه منح القوة المحتلة الفرصة المديدة لامتصاصها وتمثيلها . والنجار مهما كان جاهلا ومنشاره كليلا فتى منحته الزمن الكافي فهو واصل الى قطع الشجرة حتماً

***

ولا مراء أن الحصول على الانقلاب المنشود بالطريقة السلمية — متى كان ممكناً — لا يرغب عنه الى الطريقة الثورية الا الحمق ، وهل يترك السهل ويسلك الوعر الا مضطر ألجأته الحوادث الى ركوب متن الخطر ؟

ودليل التتبع في الثورات الحاضرة على ان معظم الاعتراضات على الثورة كتب في تقبيح الانتقاض على الانظمة الاجتماعية والاقتصادية التي خضعت لها الجمعية البشرية حتى الآن ، وفازت الثورة الشيوعية من هذه الاعتراضات بالنصيب الاوفر ، فقد حمل عليها النقاد في بعض البلدان حملة شعواء منكرة تنفيراً للخلق منها ومن زعمائها والقائلين بها ، ونحتت هذه الانتقادات وحبرت بصورة خاصة في البلدان المتطرفة في رأس ماليتها على ما سنبينه في مقالنا الآتي